

تفسير الجزء الأخير من الآية رقم 18 من سورة الكهف

بمفاهيم علم النفس في القرن الحادي والعشرين

Interpretation of the last part of verse 18 of Surat Al-Kahf using 21st-century psychology concepts

البشير معمرية

أستاذ القياس النفسي ومناهج البحث النفسي (سابقاً)

جامعة الحاج لخضر. باتنة وجامعة محمد لمين دباغين. سطيف

Maamriabashir2018@gmail.com

المؤلف المرسل : البشير معمرية	تاريخ النشر : 2025-07-30	تاريخ القبول : 2025-05-12	تاريخ الارسال : 2025-04-21
-------------------------------	--------------------------	---------------------------	----------------------------

ملخص.

تناولت هذه المقالة جزء من آية من القرآن العظيم، كما تم تفسيرها لدى المفسرين في القرون الوسطى، وكما تم تفسيرها بمفاهيم علم النفس في القرن الحادي والعشرين، ومضمون الآية القرآنية، يقول الله تعالى: "لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا". سورة الكهف: 18. أي هناك: اطلاع، وهناك نزوع/ إرادة، وهناك وجدان. وتتعلق بثلاثة مكونات للنفس البشرية، وهي: المعرفة، والنزوع/ الإرادة، والوجدان.

Summary :

This article discusses part of a verse from the Holy Qur'an, as interpreted by medieval commentators and as interpreted by twenty-first-century psychological concepts. The content of this verse is as follows: "If you had looked at them, you would have turned away from them in flight and would have been filled with terror." (Surat al-Kahf: 18). This means that there is: looking at them, there is inclination/will, and there is conscience. It relates to three components of the human psyche: knowledge, inclination/will, and conscience

مقدمة.

إن القرآن هو خطاب الله الأخير للإنسان، وهو خطاب ميسر لكل من قرأه وتدبره، يقول الله تعالى: "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ". القمر: 17. وإن إعجاز القرآن الكريم، ترتب على فهمه وتدبره، وليس على غموضه والجهل به. (سهام محمود العراقي، 1990، 151). ويقول الله تعالى: "كِتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَّبَ رُؤُوسًا أَتَيْتَهُ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ". ص: 29. ويقول الله تعالى: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَنْ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا". محمد 29.

وجاء القرآن شاملاً لكل شيء، فما من شيء تعلق بتعاليم الدين، أو تعلق بشؤون الدنيا، أو بأحوال الآخرة إلا ودل عليه القرآن. يقول الله تعالى: "مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابٍ مِنْ شَيْءٍ". الأنعام: 38. ويقول الله تعالى أيضاً: "وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ". الأنعام: 59. وخضع القرآن الكريم لعمليات تفسير آياته وكلماته، منذ نزوله على محمد صلى الله عليه وسلم، إلى اليوم، ولا زال كذلك.

جرت سنة الله تعالى في إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يبعث لكل أمة نبيا بلسان قومه، وأن يكون كتابه بلسانهم، قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ - لِيُبَيِّنَ لَهُمْ". إبراهيم: 4. ظهر محمد صلى الله عليه وسلم في منطقة تسمى اليوم جغرافيا بالجزيرة العربية، وفي مدينتي مكة والمدينة، المتواجدين في منطقة تسمى الحجاز، وأنزل الله عليه القرآن بلسان قومه (اللسان العربي). وردت في القرآن الكريم أنه "قرآن عربي" في تسع مرات، وهي كما يأتي:

1. الآية رقم 02 سورة من يوسف. يقول الله تعالى: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" (سورة مكية).
2. الآية رقم 103 من سورة النحل، يقول الله تعالى: "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ". (سورة مكية).
3. الآية رقم 113 من سورة طه، يقول الله تعالى: "وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا". (سورة مكية)..
4. الآيات الآتية من سورة الشعراء، يقول الله تعالى: "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195)". (سورة مكية).

5. الآية رقم 28 من سورة الزمر، يقول الله تعالى: "قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ". (سورة مكية).
6. الآية رقم 03 من سورة فصلت، "كِتَبْنَا فَصَّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ". (سورة مكية).
7. الآية رقم 07 من سورة الشورى، يقول الله تعالى: "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ". (سورة مكية).
8. الآية رقم 03 من سورة الزخرف، يقول الله تعالى: "إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ". (سورة مكية).
9. الآية رقم 12 من سورة الأحقاف، يقول الله تعالى: "وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ". (سورة مكية).

وفي مرة واحدة بعبارة "حكما عربيا" في الآية رقم 37 من سورة الرعد، يقول الله تعالى: "وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا". (سورة مدنية).

آيات التحدي.

ولكن، هل القرآن عربي جميعه؟ رغم أن القرآن ذكر أنه نزل بلغة العرب، كما تبين من الآيات التسعة سابقة الذكر، إلا أن القرآن تبين للعرب الذين نزل بينهم أنفسهم أنه يعلو على سائر كلامهم بأساليبه اللغوية والبلاغية البليغة، وأعجزهم أن يأتوا بمثله، رغم محاولات بعضهم، مثل مسيلمة الكذاب، إضافة إلى قوة معانيه ودقتها، وأحكامه وقصصه ومقاصده الشرعية، وتحداهم في بعض الآيات أن يأتوا بمثله، ولن يستطيعوا ذلك حتى ولو تعاون الإنس والجن على ذلك، يقول الله تعالى: "قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا". الإسراء: 88.

ويقول الله تعالى: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ". يونس: 38.

ويقول الله تعالى: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ". سورة هود 13.

ويقول الله تعالى: "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ". البقرة: 23.

ويقول الله تعالى: "أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ". الطور: 33. 34.

نلاحظ أن ما جاء في هذه الآيات الكريمة يتحدى العرب المشركين الذين يقولون بأن القرآن ليس من عند الله، وأنه من عند محمد قام بافترائه، وأنهم يستطيعون أن يأتوا بمثله، إن أرادوا ذلك، فقال الله تعالى متحديا لهم بالآيات السابقة، أنهم لن يأتوا أبدا بهذا القرآن بأي شكل من الأشكال، حتى ولو جمعوا كل قوتهم وأعانهم الجن على ذلك.

وبعد ما تم عرضه من تحدي القرآن للعرب، يتبين أن القرآن ليس كله عربيا، إذن، ما الجوانب التي تعتبر في القرآن الكريم لغة عربية؟ هناك جانبان فقط من القرآن يتسمى بهما قرآنا عربيا، هما: الكلمات والحروف التي كتبت بها تلك الكلمات، أما ما عدا ذلك فهو ليس للعرب فيه شيء، فكله لله.

تفسير القرآن الكريم ومراحله.

كان القوم الذين ظهر فيهم محمد صلى الله عليه وسلم، رسولا ونبيا، عربا خلصا، يفهمون القرآن الكريم بحكم السليقة العربية واللسان العربي، لكنهم كانوا يتفاوتون في إدراكه وفهمه، فكل واحد منهم كان يدرك منه ما يوقفه على إعجازه، فكان بعضهم يفسر ما غمض على الآخر من معنى، فإن أشكل عليهم لفظ، أو غمض عليهم معنى ولم يجدوا من يفسره لهم سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم فيبينه لهم. وهذا نشأ علم التفسير. ثم مر بمراحل، وأبرزها ما يأتي: (فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، 1419، 14).

المرحلة الأولى: التفسير في عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظ القرآن: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ". الحجر: 9. كما تكفل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يجمع القرآن في صدره: "لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ" (16) "إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ" (17). القيامة. ثم كلف الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم القرآن، وأن يفسره لهم، قال الله تعالى مخاطبا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم: "وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ". النحل: 44. (فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، 1419، 15).

كان الصحابة رضوان الله عليهم، عندما يستعصي عليهم فهم معاني ودلالات الآيات أو الكلمات من القرآن، يتوجهون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليبيّن لهم ما استعصى عليهم فهمه وما غمض عليهم إدراكه. (فاتن الفلكي، 2007، 6). يقول الله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ". إبراهيم: 4.

المرحلة الثانية التفسير في عهد الصحابة رضي الله عنهم.

بما أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا عربا في أصولهم يفهمون القرآن ويدركون معانيه وأهدافه بحكم سليقتهم العربية فهما لا تعكره عجمة ولا يشوهه شيء من قبح الابتداع وتحكم العقيدة الزائفة. (فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، 1419، 19).

اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة، وهم: الخلفاء الراشدون الأربعة؛ (1) أبو بكر الصديق، (2) عمر بن الخطاب، (3) عثمان بن عفان، (4) علي بن أبي طالب، (5) عبد الله بن مسعود، (6) عبد الله بن عباس، (7) أبي بن كعب، (8) وزيد بن ثابت، (9) أبو موسى الأشعري، (10) وعبد الله بن الزبير. (الحافظ جلال الدين السيوطي، د. ت، 204). وأجدر هؤلاء العشرة جميعا بلقب المفسر هو عبد الله بن عباس، الذي شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بالعلم، ودعا له بقوله: "اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل". (بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، 1990، 302). وسماء ترجمان القرآن. (الحافظ جلال الدين السيوطي، د. ت، 205).

المرحلة الثالثة التفسير في عهد التابعين وتابعيهم ومن جاء بعدهم.

وتلقى أفراد من التابعين في أماكن وبلدان إسلامية عديدة. تفسير الصحابة وأقوالهم في آيات القرآن الكريم، فنشأت في مكة جماعة للمفسرين، وفي المدينة المنورة نشأت جماعة أخرى، وفي العراق نشأت جماعة ثالثة. وقال الشيخ ابن تيمية: "أعلم الناس بالتفسير جماعة مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، وكذلك في الكوفة لأنهم أصحاب ابن مسعود، وعلماء أهل المدينة في التفسير". ثم أخذ تابعو التابعين ما وصل إليهم، وصنفوا التفاسير، فكان ذلك إرهاصا لابن جرير الطبري، الذي يوشك المفسرون، من بعده، أن يكونوا جميعا عالة عليه. (صبيح الصالح، 1981، 290). واتجه العلماء، بعد ذلك، في تفاسيرهم اتجاهات شتى، فظهر ما أطلق عليه "التفسير بالمأثور"، وهو امتداد للتفاسير السابقة المسندة إلى الصحابة والتابعين، وتابعيهم. وأجل التفاسير بالمأثور هو تفسير ابن جرير

الطبري، ويسمى: "جامع البيان في تفسير القرآن". وظهر، كذلك، ما أطلق عليه "التفسير بالرأي"، الذي تعددت فيه المناهج وتضاربت الأفكار، واختلف العلماء حوله: فمن محرم له ومن مجيز. (صبي الصالح، 1981، 290. 291).

تفسير العلماء لآيات القرآن الكريم من وجهة نظر الدين.

وكانت السمة الرئيسية التي اتصفت بها التفاسير في ذلك الزمن، هي أن الذين تولوا عملية تفسير القرآن، كانوا من علماء الدين، لأن الإسلام دين، في جوهره، أو هكذا تم فهمه، في ذلك الزمان، فكان هؤلاء العلماء يقومون باستخراج، من آيات القرآن أو يستنبطون منها، أو يستقرؤون، كذلك، ما يتعلق بالعقيدة والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وما يتعلق بالعبادات وبالشريعة، في مجال المعاملات والأخلاق والعلاقات بين الناس كعلاقات الأزواج، وعلاقة الأبناء بالأباء، وعلاقة الجار بجاره وغيرها. وربما لم يكن هناك أي اهتمام أو تدبر لآيات القرآن الكريم، فيما يتعلق بالتفسير العلمي، وأقصد بالتفسير العلمي لآيات القرآن الكريم وكلماته، اتفاق ما توصل إليه العلم من خلال جهود العقول البشرية، في علوم مختلفة، مع ما جاء في القرآن، وهذا بسبب عدم ظهور علوم بشرية تجريبية ومتخصصة في مجالات مختلفة، كما هو اليوم. في الجامعات ومخابرها العلمية. ولكن بعد ظهور نتائج البحوث العلمية في تخصصات مختلفة، استطاعت العقول أن تكتشف وجود تطابق ما اكتشفه العلم مع ما جاء في القرآن الكريم.

التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم.

وفي التفسير العلمي للقرآن، لا يرجع المفسر إلى أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، أو إلى أقوال الصحابة والتابعين وتابعهم وغيرهم من المفسرين، الذين ظهروا بعد ذلك، بل يرجع إلى النتائج العلمية التي تم التحقق منها، بالمنهج العلمي، وتتفق مع الحقائق المشاهدة في الواقع، سواء بطريقة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة، وصارت محل قبول وثقة، ثم البحث في تطابقها مع ما جاء في آيات القرآن الكريم. وهذا ما قمت به عند تفسير الجزء الأخير من الآية رقم 18 من سورة الكهف، حيث قابلت بين نص الآية القرآنية ونتائج بحوث علم النفس التي تم التحقق منها، وصارت من حقائق علم النفس. كما سيرد ذلك في الفقرات القادمة، من هذه الوقفة.

وظهر هذا النوع من التفسير، واتسع القول فيه على أساس احتواء القرآن الكريم على كل العلوم، ما كان منها وما يكون، فالقرآن الكريم في نظر أصحاب هذا الاتجاه، يشمل، إلى جانب العلوم الدينية والاعتقادية، سائر علوم الدنيا على اختلاف أنواعها، وتعدد ألوانها. ويعتبر أبو حامد الغزالي (450. 505 هـ)، (1058. 1111 م). أكثر من تحدث في هذا الاتجاه، وأهم من أيده وعمل على ترويجه في الأوساط العلمية الإسلامية. (محمد حسين الذهبي، د. ت، 349).

وذكر أبو حامد الغزالي في كتابه (جواهر القرآن)، كيف تشعبت سائر العلوم من القرآن، فذكر علم الطب والنجوم، وهيئة العالم، وهيئة بدن الحيوان، وتشريح أعضائه، وغير ذلك. ويقول ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا شك فيها

أن في الإمكان والقوة وجود أصناف من العلوم لم تخرج بعد من الوجود، وإن كان في قوة الأدمي الوصول إليها، وعلوم كانت قد خرجت من الوجود وهي تدرس الآن.

ويقول أيضا: ثم هذه العلوم ما عددها وما لم نعدده (....) فإن جميعها مغترفة من بحر واحد، من بحار معرفة الله، وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفذ. (محمد حسين الذهبي، د. ت، 350).

وينحو جلال الدين السيوطي منحى أبي حامد الغزالي في القول بالتفسير العلمي للقرآن، فيسوق في كتابه (الإتقان في علوم القرآن)، وفي كتابه (الإكليل في استنباط التنزيل) آيات من القرآن وأحاديث نبوية، يستدل بها على أن القرآن مشتمل على كل العلوم. (محمد حسين الذهبي، د. ت، 351).

ثم ظهرت بعد ذلك كتب ومؤلفات ذات الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم، ومنها كتاب (كشف الأسرار النورية القرآنية، فيما يتعلق بالأجرام السماوية، والأرضية، والحيوانات، والنباتات، والجواهر المعدنية) للإمام الفاضل، والطبيب البارع، محمد بن أحمد الاسكندراني، من علماء القرن الثالث عشر الهجري، يقع الكتاب في ثلاثة مجلدات، ونشر بمصر سنة 1297 هجرية. (محمد حسين الذهبي، د. ت، 365).

العلم يكتشف ويشرح ويقدم إعجاز القرآن.

فالله خالق كل شيء، أما العلم الذي تمارسه عقول البشر، فيقوم باكتشاف ما خلقه الله، ويشرحه ويوضحه للناس، وكل علم يكتشف في القرآن ما يتعلق بتخصصه، ويتوفر القرآن الكريم على آيات كثيرة تتحدث عن ظواهر وحقائق أفرطها الله في الأرض وفي السماء، وفي الإنسان، وفي الحيوان وفي النبات، وعن دور الماء في الحياة، وعن دور الليل والنهار في سلوك الإنسان وتصرفاته، وفي كل شيء خلقه الله. وسأذكر فيما يأتي بعض الآيات منها، كأمثلة.

يقول الله تعالى: "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ". النحل: 78.

يقول الله تعالى "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَظْلَمَةٍ تَسْمَعُونُ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72)". القصص.

يقول الله تعالى: "إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا". الإنسان: 2.

يقول الله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ". الأنبياء: 33.

يقول الله تعالى: "أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ". الأنبياء: 44.

يقول الله تعالى: "أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا". الأنبياء: 30.

يقول الله تعالى: "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ". الأنبياء: 30.

يقول الله تعالى: "وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ". الأنبياء: 31.

يقول الله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ". الأنبياء: 33.

يقول الله تعالى: "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّجْدِينَ (98)".
الحجر.

يقول الله تعالى: "وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ". الأنعام: 38.

يقول الله تعالى: "وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ". الذاريات: 20.

يقول الله تعالى: "سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِمَّا أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلُخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)".
يس.

يقول الله تعالى: "فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ". الأنعام: 125.

يقول الله تعالى: "وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ". الحجر: 22.

يقول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن دَكْرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا". الحجرات: 13.

يقول الله تعالى: "الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا". الطلاق: 12.

يقول الله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا". الفرقان: 45.

يقول الله تعالى: "مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20)". الرحمن.

هذه بعض الأمثلة من الآيات التي جاء بها القرآن الكريم، ويتطلب تفسيرها تدخل العلم البشري في تخصصاته المختلفة.

وهناك الكثير مما اكتشفه العلماء في الآيات القرآنية، ولا تتوقف هذه الاكتشافات إلى يوم الدين.

تفسير آية من القرآن الكريم بمفاهيم علم النفس.

وفي هذا المسعى تولى كاتب هذه الورقة، وهو متخصص في علم النفس، منذ 52 سنة، في الجزائر، تفسير الجزء الأخير من الآية رقم 18 من سورة الكهف. يقول الله تعالى: "لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلَّيْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا". وقبل ذلك، استعرض بعض محاولات تفسير هذه الآية من قبل بعض المفسرين قديما وحديثا.

تفسير الآية رقم 18 من سورة الكهف في تفاسير القرآن الآتية

1) تفسير الطبري (310.224هـ) (923.839م).

يقول الله تعالى: "لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا". يقول: لو اطلعت عليهم في رقدتهم التي رقدوها في كهفهم، لأدبرت عنهم هاربا منهم فارا، "وَلَمَلَّيْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا". يقول: ولملت نفسك من اطلاعك عليهم فرعا، لما كان الله ألبسهم من الهيبة، كي لا يصل إليهم واصل، ولا تلمسهم يد لأمس حتى يبلغ الكتاب فيهم أجله، وتوقظهم من رقدتهم قدرته وسلطانه

في الوقت الذي أراد أن يجعلهم عبرة لمن شاء من خلقه، وآية لمن أراد الاحتجاج بهم عليه من عباده، ليعلموا أن وعد الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها. <https://www.islamweb.net/ar/fatwa/72063/>

(2) تفسير القرطبي (توفي عام 671هـ) (1214. 1273م).

يقول الله تعالى "لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ"، قرأ الجمهور بكسر الواو، والأعمش ويحي بن وثاب بضمها. "لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا" أي لو أشرفت عليهم لهربت منهم. "وَلَمَّا لَيْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا" أي لما حفاهم الله تعالى من الرعب واكتنفهم من الهيبة، وقيل: لوحشة مكانهم، وكأنهم آواهم الله إلى هذا المكان الوحش في الظاهر لينفر الناس عنهم. وقيل كان الناس محجوبين عنهم بالرعب، لا يجسر أحد منهم على الدنو إليهم. وقيل: الفرار منهم لطول شعورهم واطفارهم، وذكره المهدوي والنحاس والزجاج والقشيري. (القرطبي، 1967، 373، 374).

(3) تفسير ابن كثير (701. 774 هـ) (1301. 1374م).

يقول الله تعالى: "لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَّا لَيْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا". سورة الكهف: 18. أي أنه ألقى عليهم المهابة، بحيث لا يقع نظر أحدهم عليهم إلا هابهم، لما ألبسوا من المهابة والذعر، لفلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لأمس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضي رقتهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له في ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة. (تفسير ابن كثير، 1980، 374).

(4) القرآن وعلم النفس (1985).

قمت بقراءة كتاب: القرآن وعلم النفس، الطبعة الثالثة (1985)، لمؤلفه: محمد عثمان نجاتي، فوجدت أنه لم يذكر الآية رقم 18 من سورة الكهف، ضمن آيات القرآن التي أدرجها في مؤلفه، وحاول مطابقتها مع حقائق علم النفس كما تناوله علماء النفس في الجامعات الغربية.

(5) تفسير القرآن للشباب (2007) وإحدى عشر تفسيراً قديماً وحديثاً.

قامت مؤلفة هذا الكتاب (تفسير القرآن للشباب) بالاعتماد على 11 تفسيراً، منها تفاسير قديمة، وتفسير حديثة، وهي كما يأتي: (1) مختصر تفسير ابن كثير. (2) مختصر تفسير الإمام الطبري. (3) تفسير القرآن للشيخ القرطبي. (4) تفسير الجلالين للشيخ جلال السيوطي والشيخ جلال المحلي. (5) في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب. (6) شرح رياض الصالحين للشيخ محمد بن صالح العثيمين. (7) خواطر إيمانية للشيخ متولي الشعراوي. (8) صفوة التفاسير للشيخ علي الصابوني. (9) تفسير القرآن للشيخ محمد فريد وجدي. (10) كتاب خلاصة التفسير للشيخ محمد بكر إسماعيل. (11) كتاب أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ الشنقيطي. (فاتن الفلبي، 2007، 481).

قامت الباحثة بعرض نص هذه الآية ضمن آيات القرآن الكريم في سورة الكهف، ولم تفسرها، بل ذكرتها فقط، في مكانها، وهي الجزء الأخير من الآية رقم 18 من سورة الكهف.

تفسير متخصص في علم النفس في القرن الحادي والعشرين

علم النفس في بداية ظهوره علما مستقلا عن الفلسفة.

لما أسند إليّ تدريس مقرر "مدخل علم النفس" بقسم علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا في جامعة الحاج لخضر. باتنة (الجزائر)، لمدة 8 سنوات، قمت بتوزيع مضمون المقرر على عدد من المحاضرات أو الدروس، كنت أقوم بإلقائها على طلبة السنة الأولى في حصص أسبوعية. وفي المحاضرة المتعلقة بتاريخ موجز لعلم النفس وتطوره، تناولت الحديث عن إسهامات مدارس علم النفس في تطور علم النفس ونموه، وأول مدرسة ظهرت في تاريخ علم النفس هي المدرسة البنائية Structuralism. التي أسسها الألماني/ فلهلم فندت (W. Wundt 1832 - 1920)، في عام 1879، إثر أبحاثه في علم النفس في معمله التجريبي بجامعة مدينة لايبزغ Leipzig بألمانيا.

ورغم أنني وجدت صعوبات في جمع المادة العلمية، عما كان يقوم به فندت في أبحاثه العلمية، نظرا لصعوبة حصولي على المراجع المتخصصة في هذا المجال، إلا أنني استطعت أن أحصل على معلومة صغيرة من هنا، ومعلومة صغيرة أخرى من هناك، مع إعمال عقلي فيما أقرأ وأطالع، وثابرت في هذا الاتجاه، حتى جمعت قدرا لا بأس به من المعلومات جعلتني أفهم طبيعة العمل الذي كان فندت يقوم به في بحوثه التجريبية في علم النفس، ونتائج تلك البحوث.

ماذا كان فندت يبحث؟

كان فندت يبحث في الخبرة الشعورية المباشرة للفرد، التي جعلها موضوعا لعلم النفس، ويحللها، ليتعرف على عناصرها أو مكوناتها، التي تبني منها، بعد تعرض الفرد، لمثيرات أو الأحداث الحسية. أي كان يبحث كيف يصف الفرد بلغته خبرته الشعورية، بعد تعرضه لمثيرات حسية. مستعملا المنهج الاستبطاني.

كيف كان فندت يبحث؟

كان فندت، يدرّب أشخاصا راشدين أسوياء، على طريقة إدلائهم بكلامهم حول ما يشعرون به، ويدركونه في خبراتهم الذاتية، بعد تعرضهم لمثيرات حسية معينة، ويقوم هو، بعد ذلك، بتحليل ذلك الكلام. وتصنيفه إلى مكوناته، وهي عناصر الخبرة الشعورية، كان يعرض على كل فرد منهم مثيرا حسيا معينا (مقطوعة موسيقية لموزارت، مثلا)، ثم يطلب منه أن يتحدث عنه مباشرة، مركزا انتباهه على شعوره وخبرته (استبطان) إزاء تلك المقطوعة الموسيقية.

ما نتائج بحوث فندت؟

بينت نتائج بحوث فندت، من هذه التجارب على مجموعة من الأفراد، كل على حدة، باستعمال منهج الاستبطان، أن هناك ثلاث عمليات نفسية أساسية، تتضمنها الخبرة الشعورية للفرد، وكعناصر لها، هي: المعرفة Cognition، والتزوع (الإرادة) Conation (Will)، والوجدان Affect.

كان فندت يقوم بتحليل كلام الفرد/ المفحوص، فيتعرف على العمليات النفسية الثلاثة، كما يأتي:

****** يلاحظ أن المفحوص يتحدث عن معرفته بالثير الذي تم تقديمه له في مجاله الحسي (مقطوعة موسيقية لموزارت). وهذه (معرفة).

****** يلاحظ أن مفحوصا يعبر عن نزوعه (إرادته) بالإقبال على سماع الموسيقى (مقطوعة موسيقية لموزارت)، ومفحوصا آخر يعبر عن نزوعه (إرادته) بالإحجام عن سماعه لتلك المقطوعة الموسيقية. وهذا (نزوع/ إرادة).

****** ويلاحظ أن مفحوصا يعبر عن قبوله وسعادته بسماعه لتلك الموسيقى (مقطوعة موسيقية لموزارت)، ومفحوصا آخر يعبر عن رفضه وضجره لسماعه لتلك الموسيقى. وهذا (وجدان).

طبيعة الخصائص النفسية الثلاثة.

ولفهم طبيعة الخصائص النفسية الثلاثة، أي المعرفة، والنزوع/ الإرادة، والوجدان، يتبين أن المعرفة خاصة ذات قطب واحد، أو ذات اتجاه واحد، فتبدأ من عدم وجودها (لا توجد معرفة لدى الشخص) ثم توجد لديه بمستويات متصاعدة إلى تمامها (معرفة كاملة). أما كل من النزوع/ الإرادة، والوجدان، فهما خاصيتان ذات قطبين متضادين، أو ذات قطبين متناقضين؛ فالنزوع/ الإرادة يتضمن الإقبال والمضاد له أو نقيضه هو الإحجام، ويتضمن الوجدان القبول والمضاد له أو نقيضه هو الرفض. ويعني التضاد أو النقيض، أن وجود أحد القطبين يعني غياب القطب الآخر، فعندما يكون الفرد مقبلاً، يكون إحجامه غائباً، والعكس صحيح، وعندما يشعر الفرد بالقبول، يكون شعوره بالرفض غائباً، والعكس صحيح.

واستخلص فندت من تجاربه، كذلك، أن كل الخبرات الوجدانية الإنسانية، مثل: الفرح والحزن، والقلق والانشرح وغيرها، تحدث ضمن ثلاثة عناصر أساسية، يمكن وصف كل منها على أساس بُعد مستقل ذي قطبين، هي: السرور مقابل الكدر، والشدة مقابل الاسترخاء، والإثارة مقابل الهدوء. وبناء على هذا، يمكن وصف أي خبرة وجدانية إنسانية، بأنها: سارة أو مكدر، تتسم بالشدة أو بالاسترخاء، وبالإثارة أو بالهدوء. (عبد الحليم محمود السيد وآخرون. 1990، 59).

سلوك عامة الناس.

وفي الحقيقة، فإن الذي استخلصه فندت من تجاربه على أفراد عينته، ما هو إلا السلوك نفسه، والكلام نفسه الذي يقوله أي فرد من الناس، عندما يعيش خبرة ذاتية مع مثير معين، دون أن يكون محل تجربة علمية. وإليك ما يأتي.

1. كأن يقول أحد الأفراد، مثلاً، أعرف الآن أي أقرأ آيات من القرآن الكريم (معرفة)، وأشعر بميل قوي إلى مواصلة قراءتها مدة طويلة (نزوع/ إرادة)، لأنني أشعر عند قراءتها بحلاوة الإيمان وبالاطمئنان وراحة البال (وجدان).
2. ويقول فرد آخر من الناس، أعرف الآن أي أتعرض لإساءة من جماعة من الناس (معرفة)، وأريد مغادرة هذه الجماعة حالاً والابتعاد عنها (نزوع/ إرادة). لأنني أشعر بالإهانة والأذى لشخصي (وجدان)،

3. وأنت تقرأ ما ورد في هذه المقالة، فتعرف مضمونه وموضوعه (هذه معرفة)، وتشعرتبعاً لذلك، بمواصلة قراءة المقالة إلى نهايتها (إقدام)، أو تتوقف عن الاستمرار في قراءتها (إحجام)، وهذا في الحالتين (نزوع/ إرادة)، لأنك في الحالة الأولى (إقدام) تشعر بالرضا والاستمتاع وأنت تقرؤها، أما في الحالة الثانية (إحجام) فإنك تشعر بعدم الرضا وعدم الاستمتاع بقراءتها وهو في الحالتين (وجدان).

تفسير الآية القرآنية بمفاهيم علم النفس.

نعود، مرة أخرى، إلى الآية القرآنية. يقول الله تعالى: "لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا". سورة الكهف: 18.

هناك اطلاع، وهناك فرار، وهناك رعب

إن تفسير هذه الآية وفق النتائج التي اكتشفها فندت في بحوثه في علم النفس، وعلى أساس أن هناك آيات في القرآن تتوفر على إشارات نفسية، يتبين أن العمليات الثلاثة التي قال بها فندت، وفق نظريته البنائية، أو وفق تحليله للخبرة الشعورية؛ وهي: المعرفة، والنزوع/ الإرادة، والوجدان، عبّرت عنها هذه الآية القرآنية مباشرة في ثلاث جمل فعلية تامة صريحة وشاملة، كما يأتي:

"لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ" (معرفة).

"لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا" (نزوع/ إرادة).

"وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا" (وجدان).

وفي تعقيب على هذا التفسير بلغة علم النفس لجزء من آية قرآنية، فإنه نتيجة لتقدم العلوم المختلفة، التي أنتجها العقل البشري، منذ قرون وأزمنة متتابعة، أصبح من الممكن جداً، ظهور فهم جديد للكثير من آيات القرآن، وتفسيرها علمياً، فيظهر بذلك فرق كبيرين تفسير القرون الوسطى، وما بعدها، لهذه الآية الكريمة، وتفسيرها نفسياً، كما ورد في هذه الورقة، فالمفسرون في القرون الوسطى لا يتوفرون على معلومات علمية، أيا كان تخصصها، كما مر بنا في مقدمة هذه الورقة، ليدعموا بها تفسيرهم للآيات القرآنية، بل يعتمدون على المعاني اللغوية للكلمات، من ناحية، ومن ناحية أخرى، يدعمون تفسيرهم للآيات القرآنية بما ورد في الأحاديث النبوية، وما قاله الصحابة والتابعون والعلماء الذين عاشوا قبلهم. وهو تفسير في معظمه ذو طابع ديني، سواء في العقيدة أو في العبادات وفي المعاملات وغيرها، ولكن تقدم العلوم في القرون الأخيرة، في المجالات المختلفة، واستعمال نتائجها لفهم معاني الآيات القرآنية، سوف يُحدث تغييراً كبيراً في فهم القرآن وتفسير آياته، مقارنة بتفسير المفسرين للقرآن في العصور القديمة.

شرح معنى الآية لفظياً.

إن شرح الآية، بلغة بسيطة: هو أن الله سبحانه وتعالى، يقول: يا محمد، لو رأيتهم (أي فتية الكهف) وتعرفت على أحوالهم، وهم رقاد، لوليت فاراً منهم وهارباً، ولأصابك منهم الرعب (أي الخوف والفرع الشديدين)، وشعرت كأن الرعب يملأ نفسك من شدته.

دور الأجهزة الفيزيولوجية في تفسير العمليات النفسية الثلاثة وترتيبها.

يبين علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا)، أنه عادة ما تسبق، أو تصاحب، استجابة الفرد باستجابة عقلية أو بدنية أو وجدانية، تغيرات فيزيولوجية وبدنية؛ في الجهاز العصبي السمبتاوي (اللاإرادي) والدورة الدموية، ونشاط القلب، ونشاط عملية التنفس، لتزويد المخ بالأكسجين، والعضلات البدنية من أجل الهرب، أو للدفاع عن النفس، إذا كان هناك خطر، ولهذا جاء ترتيب العناصر الثلاثة، للآية، كما يأتي: الاطلاع أي المعرفة، ثم الفرار وهو النشاط البدني الذي يعبر عن النزوع/ الإرادة، وأخيرا، الرعب، الذي يعبر عن الوجدان، ووفق هذا الترتيب، فإن الرعب، أي الوجدان، لم يحصل بسبب التعرف على حالة فتية الكهف، وهم رقود، بل بسبب التغيرات الفيزيولوجية التي حدثت في البدن، وأحس الفرد بها.

ترتيب العمليات النفسية الثلاثة بين النظرة النفسية الكلاسيكية وما جاء في القرآن.

بالنسبة لترتيب العمليات النفسية الثلاثة، نلاحظ أن القرآن الكريم رتبها كما يأتي: معرفة، نزوع/ إرادة، وجدان. أما ترتيبها لدى علماء النفس في زمن ما، كانوا يتصورونها كما يأتي: معرفة، وجدان، نزوع/ إرادة. وفيما يأتي مثال "سلوك الخوف" لنقارن من خلاله بين النظرة الكلاسيكية والقرآن الكريم فيما يتعلق بترتيب العمليات النفسية الثلاثة.

1. كانت وجهة النظر الكلاسيكية إزاء مكونات الانفعال، كما يأتي: أن الكائن يتعرف أولا على مثير الانفعال. وثانيا يخبره وجدانيا، ثم ثالثا تتبعه التغيرات البدنية بعد ذلك، وهي: النزوع/ الإرادة. فمثلا، لو أن طفلا صغيرا، ممن يقطنون المدن، شاهد حيوانا (وهو مثير غير مألوف لديه، فأدركه كمصدر تهديد له)، فخاف منه. فإن ترتيب مسار العمليات النفسية الثلاثة لدى هذا الطفل، يكون كما يأتي: طفل شاهد حيوانا مهددا (معرفة)، شعر بالخوف منه (وجدان)، جسمه يتهيأ للهرب (نزوع/ إرادة).
2. في عام 1885، ظهرت نظرية جيمس. لانج في الانفعال، التي قال بها، في نفس الوقت، عالمان كل منهما مستقل عن الآخر، هما: الدانماركي، كارل جورج لانج C. G. Lange. والأمريكي، وليام جيمس W. James. ووفق هذه النظرية، يكون ترتيب مسار العمليات النفسية الثلاثة، كما يأتي: طفل شاهد حيوانا مهددا (معرفة)، جسمه يتهيأ للهرب (نزوع/ إرادة)، شعر بالخوف (وجدان). إن الاستجابات البدنية تسبق الشعور بالخوف، وتكون سببا له. ومربنا، قبل قليل، أن الجزء من الآية القرآنية رتب مسار العمليات النفسية الثلاثة كما يأتي: "لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَیْهِمْ". أي لو شاهدتهم يا محمد وعرفت حالاتهم. "لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا". أي لهربت منهم، وهي استجابة بدنية. "وَمَلَّيْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا". أي لشعرت شعورا قويا بالرعب.

بدأت العمليات النفسية الثلاثة في الآية القرآنية، بالإدراك لمصدر الانفعال (معرفة)، فحدثت الاستجابات الحشوية والجسمية (نزوع/ إرادة)، والذي يصل منها إلى المخ ترتب عليه الخبرات الانفعالية (الخوف، مثلا) (وجدان).

وما الذي ترتب عن هذا في بعض الممارسات العملية في علم النفس، كالعلاج السلوكي، مثلاً، وفق ترتيب العمليات النفسية الثلاثة في القرآن الكريم، ولدى جيمس – لانج James – Lange؟

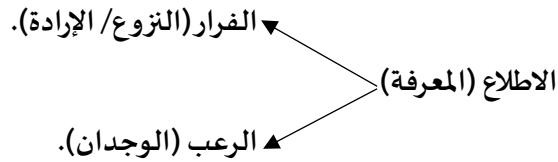
في العلاج السلوكي للخوف والقلق، بطريقة التدرج في إزالة الحساسية، يركز المعالج، في أسلوب العلاج السلوكي عن طريق الكف بالنقيض (الذي أبدعه الطبيب النفسي الجنوب إفريقي/ جوزيف وولب J. Wolpe، في عام 1958)، على خفض حساسية الفرد إزاء المثير الذي يخيفه، وذلك بجعله يسترخي بدنياً. أي أن الاستجابات الحشوية البدنية، التي تحدث بفعل الاسترخاء، تسبق عملية خفض انفعال الخوف والقلق.

هناك فرق آخر فيما يتعلق بترتيب العمليات النفسية الثلاثة بين نظرة علماء النفس والقرآن الكريم. إن ترتيبها لدى علماء النفس جاء خطياً، هكذا:

معرفة ————— نزوع/إرادة ————— وجدان.

فالتأثير يسير خطياً ومتتابعاً من العملية الأولى إلى الثانية ثم الثالثة.

أما في القرآن الكريم، فإن ترتيب المعرفة والنزوع والإرادة والوجدان جاء متتابعاً هكذا في نص الآية القرآنية، إلا أن كلا من الفرار (النزوع/الإرادة) والشعور بالرعب (الوجدان)، حصلتا بسبب الاطلاع (معرفة) على حالة فتية الكهف، وهم رقاد، لأن الآية القرآنية تقول: لوليت (منهم) فرارا، ولملئت (منهم) رعبا، فقد تكررت كلمة (منهم) وسبقت كلا من سلوك الفرار، والاستجابة الانفعالية بالرعب (أي الخوف والفرع الشديدين). ولذا يمكن التعبير عنها في الشكل الآتي:



مضمون الآية ومكونات النفس البشرية.

بينت الآية القرآنية الكريمة، كذلك، بوضوح لا جدال فيه، أن مكونات النفس البشرية وأبعادها ثلاثة، فكل فرد من البشر، يتكون من الناحية النفسية من: (1) معرفة. (2) ونزوع/إرادة، (3) ووجدان. التي تتفاعل فيما بينها مكونة شخصيته، وسلوكه واتجاهاته وتصرفاته كلها، وفي حياته كلها، في سوائه وفي مرضه. فكل إنسان يصدر منه تصرف معين، وأي تصرف، فيمكن تحليله إلى العمليات الثلاثة (معرفة، نزوع/إرادة، وجدان).

مضمون الآية وموضوعات علم النفس.

والحقيقة، أن العمليات الثلاثة التي تضمنتها الآية القرآنية الكريمة، واكتشفها فندت، بعد ذلك، من خلال بحوثه في الخبرة الشعورية، كما أوضح ذلك، وهي: (المعرفة، والنزوع/الإرادة، والوجدان)، تشمل موضوعات علم النفس كلها، منذ نشأته إلى اليوم، وهي كل ما يبحثه علماء النفس في كل جامعات العالم، ولا يبحثون أبداً عمليات

أخرى غيرها. فجميع الموضوعات التي يتولى علماء النفس البحث فيها، والتأليف فيها، والاختصاص فيها، لا تخرج ولا تحيد عن هذه العمليات الثلاثة.

وفيما يأتي موضوعات علم النفس، كما هو عليه الآن.

****العمليات المعرفية، من انتباه وإدراك وذاكرة وتذكر وتفكير وتخيل وتصور، واتخاذ القرار، وإصدار الأحكام وغيرها من العمليات المعرفية أو العقلية.**

****العمليات الوجدانية، من لذة وألم، وفرح وحزن، وحب وكراه، ورضا وسخط، وقبول ورفض، وسعادة واكتئاب، وقلق وهدوء، وتفاؤل وتشاؤم وغيرها.**

****العمليات النزوعية/ أو الإرادة، من إقبال وإحجام، والتزام وتخل، وقوة إرادة وضعفها، ودافعية وخمول، ومثابرة وكسل، وطموح ورضا بالقليل وغيرها.**

****العمليات النفسية الاجتماعية، من طاعة، وتقديم مساعدة، وتسلسل، وتعصب، وتسامح، وقيادة، وقيم، واتجاهات، ومجاراة، وتعاون، وإعجاب، وحب وغيرها.**

****إضافة إلى ذلك، هناك العمليات المزاجية المتعلقة بالشخصية وأنماطها وسماتها، من انطواء وانبساط، وسيطرة وخضوع، سواء في حالة السواء أم في حالة اللاسواء.**

إن كل هذه الموضوعات، التي تمثل جوهر علم النفس، كما ظهر ونما وتطور في جامعات الغرب، منضوية كلها تحت غطاء العمليات الثلاثة (المعرفة، النزوع/ الإرادة، الوجدان)، ولا توجد عمليات أخرى غيرها.

طبيعة "الرعب" كما ورد في القرآن الكريم.

وردت كلمة الرعب في القرآن الكريم في خمس آيات. وهي كما يأتي.

يقول الله تعالى: "سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ - سُلْطَنَا وَمَا وَهُمْ إِلَّا نَارٌ وَّيُسَّ مَنُورٍ الظَّالِمِينَ". آل عمران: 151.

يقول الله تعالى: "سَأَلَقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ". الأنفال: 12.

يقول الله تعالى: "لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلَّيْتَ مِنْهُمْ رُعبًا". الكهف: 18.

يقول الله تعالى: "وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَهَرُوا مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِبِهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا". الأحزاب: 26.

يقول الله تعالى: "فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ". الحشر: 02.

يتبين من مضمون الآيات الخمسة السابقة، أن الرعب، وهو أقوى تأثيراً في حالة الفرد وجدانياً من الخوف والفرع والهلع والوجل، يكون على ثلاث حالات، وهي: الأولى، أنه يأتي من الخارج، حيث قال الله تعالى: "سَنُلْقِي"، "سَأَلْقِي"، "وَقَذَفَ"، "وَقَذَفَ"، والثانية، أن إلقاء وقذف الرعب يكون في القلب. "سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ"، "سَأَلْقِي فِي

قُلُوبٍ"، "وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمْ"، "وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمْ"، والثالثة، أن الرعب لما يتم إلقاؤه أو قذفه، ويصيب القلب ويتمكن منه، يملأ الجهاز النفسي للفرد كله، وأعضاءه البدنية كلها "وَمَلَأَتْ مِنْهُمْ رُعبًا"، حتى أنه يصبح لا يميز ما يقوم به من تصرفات، ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه. راجعوا الآيات القرآنية سابقة الذكر، وخاصة في سورة الأنفال التي تتحدث الآية رقم 12 فيها على غزوة بدر، وفي سورة الأحزاب التي تتحدث الآية رقم 26 فيها عن يهود بني قريظة، وفي سورة الحشر التي تتحدث الآية رقم 02 فيها عن يهود بني النضير.

دور الفلاسفة المسلمين في التفسير النفسي للقرآن.

ولو انتبه الفلاسفة المسلمون، مثل إخوان الصفا، إلى هذه الآية القصيرة في عدد كلماتها، والقوية في شمولها، والعظيمة في معانيها، لكان لهم فضل السبق والإبداع في علم النفس، قبل علماء النفس في الغرب. لأن إخوان الصفا (في القرن الثالث الهجري، الموافق للقرن العاشر الميلادي)، كان لهم السبق على الفيلسوف الإنجليزي جون لوك (1632 - 1704) J. Locke في قولهم إن المعرفة حسية ومكتسبة، وليست فطرية، طبقا لقوله تعالى: "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ". النحل: 78.

أي أن الإنسان يولد وعقله صفحة بيضاء وفارغة لا خبرات فيها ولا معلومات، ثم يكتسب الخبرات والمعلومات (المعرفة)، بعد ذلك، عن طريق الحواس (السمع والبصر)، ثم تسجل في العقل وتخزن فيه (الأفئدة).

سلوك الباحثين العلميين.

وفي مجال البحث العلمي، يتضح مما سبق، أن العلماء يلاحظون السلوك والوقائع والظواهر في الواقع الحسي، بصورة تلقائية، مثلهم في ذلك مثل عامة الناس، دون ضبط لعوامل وظروف ذلك الواقع الحسي، الذي يحدث فيه السلوك والوقائع والظواهر، ولكن عندما يشرعون في بحث ذلك السلوك وتلك الوقائع والظواهر، تجريبيا، فإنهم يقومون، عندئذ، بضبط عوامل وظروف الواقع (الضبط التجريبي).

ويقوم التجريب في البحث العلمي، على اعتقاد مفاده، أن ما يحدث في التجارب، هو نفسه ما يحدث في الواقع، لو يتم ضبط العوامل والظروف في الواقع، كما يحدث في التجارب.

ويعرف التجريب بأنه: "تغيير متعمد ومضبوط للشروط المحددة لحدث ما، مع ملاحظة التغيرات الواقعة في نفس الحدث وتفسيرها". (جودت شاكر محمود، 2007، ص. 131).

وهذا بالضبط، ما قام به فندت، وغيره من المجربين، سواء في علم النفس، أم في غيره من العلوم.

نشر التفسير الذي اهتديت إليه.

في الحقيقة، أنا لست مفسراً للقرآن الكريم، ولكن التعليم الذي تلقيته في المرحلة المتوسطة وفي المرحلة الثانوية، اشتمل على كثير من الدروس والمقررات الدينية؛ كالتوحيد وأصول الدين، والفقه، وتفسير القرآن، والحديث النبوي، فكانت هذه المقررات خلفية علمية لا بأس بها فيما يتعلق بالمعلومات الدينية في الدين الإسلامي، وبصفتي، كذلك، متعلماً تعليماً عالياً، وفي تخصص من العلوم الإنسانية، فإني عندما أقرأ القرآن، أدبر آياته وأمعن فيها النظر والعقل، عسى أن أجد فيها بعض الإشارات النفسية، كما قال بها علم النفس الغربي. وحدث أن توقفت انتباهي وركزت على هذه الآية في سنة 2015، وبعد أن أعملت فيها تفكيري جيداً، وتدبرتها من خلال جمع معلومات من قراءاتي المختلفة، وإعمال العقل فيها، قمت بالكتابة عنها، باختصار، في مقدمة مقال بعنوان: "منهج بحث الفرد الواحد وتصميماته التجريبية للباحثين والمعالجين والمرشدين النفسيين". ونُشر المقال في مجلة نفسانيات، العدد 62 عام 2019، التي تصدرها مؤسسة علوم النفس العربية Arabpsynet.

خاتمة.

هل وُفِّقت في هذا التفسير؟

اللهم إني أسألك التوفيق من عندك.

يقول الله تعالى: "وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ" يوسف: 76. "وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا". الإسراء: 85. "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا" طه: 114.

المراجع.

1. القرآن الكريم.
2. ابن كثير (1980). تفسير ابن كثير. الطبعة الثانية. دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع.
3. الحافظ جلال الدين السيوطي (د. ت). الإتيان في علوم القرآن، المجلد الرابع، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. إصدار وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد. المملكة العربية السعودية.
4. الطبري. <https://www.islamweb.net/ar/fatwa/72063/>
5. القرطبي (1967). الجامع لأحكام القرآن. المجلد الخامس، الجزء التاسع، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.
6. بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، (1990). البرهان في علوم القرآن، الجزء الثاني تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، الشيخ جمال حمدي الذهبي، الشيخ إبراهيم عبد الله الكردي. بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.
7. جودت شاكر محمود (2007). البحث العلمي في العلوم السلوكية. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.
8. سهام محمود العراقي (1990). الأبعاد التربوية لمفهوم الإنسان في القرآن الكريم. دراسات تربوية، المجلد الخامس، الجزء 23، القاهرة، رابطة التربية الحديثة.

9. صبحي الصالح (1981). مباحث في علوم القرآن. دارالعلم للملأين.
10. عبد الحليم محمود السيد وآخرون (1990). علم النفس العام. الطبعة الثالث. القاهرة، مكتبة غريب.
11. فاتن الفلكي (2007). تفسير القرآن للشباب. القاهرة، مكتبة الصفا.
12. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي (1419). بحوث في أصول التفسير ومناهجه. الطبعة الرابعة. الرياض، مكتبة التوبة. المملكة العربية السعودية.
13. محمد حسين الذهبي (د.ت). التفسير والمفسرون. الجزء الثاني. القاهرة، مكتبة وهبة.